في جنائن الغرب

نأخذ ما يلي من كتاب « السعادة والسلام » الذي وضعه اللورد اقبري وعرّبه حضرة الاديب وديع افندي البستاني وسيجيء الكلام عنه بعد

١

﴿ الشاعر والسماء ﴾

ما فرغ الآلهة من شأن الخليقة حتى اعلنوا للبشر ان سيقتسموا الارض فيما بينهم ، وضربوا لهم موعداً لذلك . وما آن الموعد المضروب ، حتى وضع اهلُ الزراعة أيديهم على الحقول الممرعة ، واخذ التجّار يمهدون القفار ويسلكون البحار ، واحتلّ الرهبان منحدرات الجبال الصالحة لغرس الكروم ، وخصص الاشراف وابناء الترف الاحراج والغابات لاجل الاصطياد والتنزه ، واستولت الملوك على الجسور والمضايق والخلجان لاجل وضع المكوس والضرائب عليها : أما الشاعر فما نجا من حيث كان غريق التأملات العميقة ، حتى هبّ يسعى ، ووصل فوجد كلاًّ قد فاز بنصيبه فراح يبكي بختهُ ويطالب بحقه . ولكن ما الحيلة ولم يبقَ في يد الآلهة شيء يُعطى . فقالوا له : « هيا تعالَ اسكن معنا في صفاء السماء الابدي . تعالَ الينا كلما شئت فالباب أبداً مفتوح لك » . فقنع الشاعر بما أصابه . الا انه غني عن تكلف مشقة الصعود الى طبقات الجو وطباق السماء فهو اذا شاء وخلا باله وسكن بلباله ، ففكره يستنزل السماء الى الارض

٢

﴿ وصف الحية ﴾

وكم من حيوانٍ نظلُّ لا نعرف له شأناً حتى يقوم كاتبٌ كرسكن يصفه لنا ... وهاك وصفه للحية :

« ذلك الجدول الفضي الاملس — أفكرت في جريهِ وسعيهِ ؛ الحية لا تمشي بل تسعى وتجري . وكأنها الزورق في البحر ، الاّ ان التراب ماؤها وقشرها مجذافها ورأسها دفتها . بل هي النهر تنساب في السهل انسياباً . تموج ولا ريح تتلاعب بامواجها . تجري ولا شلال يقطع مجراها . كل جسمها يتحرّك معاً — الا ان بعضهُ ذات اليمين وبعضه ذات اليسار وقسم منه الى الامام والآخر الى الوراء ، تمرّ بك ولا تُسمعك صوتاً ، وتفوتك وتترك لك أثراً تخواه : ان آثارنا تدلُّ علينا　　فانظروا بعدنا الى الآثار

فاجئها بصرخة واذا بالجدول المنساب قد استحال سهماً مسدداً وموجة السم استقامت رمحاً مقوّماً يخترق الاعشاب وينفذ منها ولا طعنة الفارس من صدر العدوّ . لها رئة ولا تكاد تتنشق الهواء او تتنفس الصعداء . سواءٌ عندها الشمس والظل فهي باردة حارة ، جامدة الاّ انها تتساق ولا القرد ، وتسبح ولا السمكة ، وتثب ولا الغزال ، وتصارع وأين منها ابن حواء وتسحق وأين منها النمر . هي قوة شيطانية مجسمة على الارض . وكما ان العصفور هو قوة الهواء مكسية ريشاً فكذلك الحية انها قوة التراب لابسة مسوحاً وجلداً . وكما ان العصفور هو رمز للروح والحياة ، فالحية رمز لقضي الموت على الحياة وقبضته على الروح »

اضبرى